



دروس من تجربة الشهداء الخمسة

منير شفيق

ثمة عدد من الموضوعات الرئيسية يمكن ان تتعلمها  
من دراستنا لسيرة خمسة من الكوادر القيادية استشهدوا  
في العامين ١٩٧٦ و ١٩٧٧ وهم : جواد ابو الشعر ، الحاج  
حسن ، ومحمد علي ، وسعد ، وأبو خالد جورج . وقد  
ترك فقدانهم حزنا لا حد له في قلوب المئات من الكوادر  
والمقاتلين ، والآلاف من الجماهير الشعبية البسيطة .  
وشكلت خسارتنا لهم خسارة فادحة للشورة الفلسطينية  
والثورة العربية الآن وفي المستقبل ولا شك في أن العشرات  
من الكوادر الذين عاشوا وناضلوا معهم قد صمموا على  
النضال للتخلي بمزاياهم الثورية الرائعة ولبذل جهود  
مضاعفة للتخفيف من هذه الخسارة . أما في المقابل فان  
فقدانهم لم يحمل معه الحزن فقط . وانما حمل معه تشديدا  
لعزيمة جماعية ، واحساسا جياشا بالوفاء لهم وللثورة  
والشعب ، وتصميما عظيما لمواصلة الطريق الذي سقظوا  
عليه . لقد أدى فقدانهم الى تسليط الضوء على مزاياهم  
الثورية وخطهم السياسي بشكل أقوى من أي يوم مضى .  
وجعلنا نرى بشفافية ما كانوا به يتحلون . وما كانوا

يمثلون • لقد تكثفت فيهم فتح الاصلية مشربة بأفضل ما يمكن ان تحمله جماهير شعبنا ومقاتلو ثورتنا من خصال حميدة ، ورؤية سياسية وفكرية سديدة • واذا كنا سنتناولهم بالاسم ليس لانهم حالة شاذة بين المئات من خيرة الكوادر والمقاتلين الذين استشهدوا بل لانهم عبروا عن ظاهرة عامة • فهم نموذج لهؤلاء المئات • وسيكون الحديث عنهم حديثا عن مئات من أمثالهم الطليعيين • ولعلنا حين سنتناولهم مجتمعين ومنفردين سيرى كل واحد منا فيهم عددا من الشهداء الذين عرفهم عن قرب • وسيرى فيهم روح ثورتنا الفلسطينية وروح شعبنا وجماهيرنا العربية • بل في الواقع سيرى فيهم أيضا روح الاجداد والآباء العظام الذين قاتلوا في أحد وبدر ، وفي القادسية واليرموك ، وفي حطين وميسلون • وفي يعبد (١) والقسطل (٢) •

ان الذين عرفوا الشهداء الخمسة عن قرب • يجدون كم من الخصال المشتركة كانت تجمع فيما بينهم كأنهم رجل واحد • وعلى الرغم من أن كلا منهم كان يعمل في قطاع مختلف ويقود نشاطا في مجال محدد • فان الرؤية السياسية كانت واحدة • وكان المنهج واحدا • وكانت المناقب الفردية

١ - المعركة التي استشهد فيها القسام •

٢ - المعركة التي استشهد فيها عبد القادر الحسيني •

لكل منهم واحدة • واذا كان هنالك بالاحتمية من فروق فهي ضمن هذه الخصال المشتركة • بحيث نرى الواحد منهم يجمع بصورة عامة ما هو مشترك بينهم جميعا ولكن ضمن خصوصية تكثيف لبعض هذه الخصال الثورية في شخصيته • الامر الذي يعطي لها فرادتها • وتجعلنا نقول هذا هو الحاج حسن ، وهذا هو محمد علي ( أبو يعقوب ) وهذا هو جواد أبو الشعر • وهذا هو سعد وهذا هو أبو خالد جورج • ولكن عندما نتحدث عن هذا التكثيف الذي يعطي فرادة هذه الشخصية او تلك فيجب ان نرى الفروق بالنسبة لهذا الطراز من الكوادر القادة الثوريين بأنها بين ما كثف بدرجة عالية وبين ما لم يكتف على تلك الدرجة ، الامر الذي يجعلها في كثير من الاحيان ضئيلة جدا • أما السبب في ذلك فيرجع الى ان كلا منهم لم يترك نفسه تسير على سجيته كما شكلت عبر المشأ والحياة التي عاشها قبل دخوله الثورة وفي اثنائها • وانما عمل بها صقلا وتهذيبا وتطويرا من خلال النقد الذاتي والتعلم المستمر ، والتقييم • ومن التصميم الحديدي للتغلب على السلبيات والتخلي بالصفات الايجابية • انها عملية الجهاد الاكبر ضد النفس الموروثة من المجتمع ، ذلك المجتمع الذي ينشئ المرء على قيم فردية أنانية ويشحن سلوكه وأفكاره بكل ما من شأنه ان يحرفه عن قضية الثورة وخدمة الشعب ، وهنا

نجد ، بالضبط ، الشيء الذي يجب ان نتعلمه من هؤلاء الشهداء النموذجيين . والا كيف يمكن ان نقرر ما كانوا عليه من مزايا وسمات سواء في أفكارهم وسياساتهم او في سلوكهم او في منهجهم او في تلك الحياة النضالية التي عاشوها ؟ والا كيف يمكن ان نقرر لماذا أحببتهم الى هذا الحد ؟ ولماذا عصرتنا الالم في فقدانهم الى هذا الحد ؟ ولماذا يجب ان نتعلم منهم الى هذا الحد ؟ ان هذا المدخل هو الذي يدفعنا لان نتعامل معهم ليس كبشر خارقين كانوا شذوذا . ففي الواقع ان كل واحد منهم حمل في البداية ما يحمله المناضلون عموما من رسوبات وسلبات ونقاط ضعف . فقد جاؤوا من أرضنا ومن مجتمعنا فهم من هذه الناحية لم يختلفوا عن مئات الآلاف من شباب أبناء هذا الشعب . واذا تحلوا في البداية بايجابيات محددة ، فقد كانت درجة هذه الايجابيات لا تختلف اختلافا جوهريا عن نظيراتها لدى مئات الآلاف من شباب بلادنا . ولهذا علينا ونحن نتحدث عنهم ان نقاوم تلك الهالة التي يفرضها الاستشهاد وهي رؤيتهم من جلة فوق البشر . فنسى أنهم مثلنا ومن طينتنا وانهم كانوا يحملون ، ردحا طويلا من الزمن ، نقاط قوتنا وضعفنا . وانهم لم يصلوا الى ما وصلوا اليه الا عبر جهاد مع النفس والعقل . ومن ثم فلم يكن كل شيء فيهم نحيه ونحمده ونقتدي به جاهزا منذ

الولادة . او هبط عليهم هبوطا سهلا . وانما وصلوا اليه عبر الممارسة القاسية وعبر المعاناة في الصراع ضد الافكار الخاطئة . والامزجة السلبية . عبر الصراع في التفريق بين الخطين ، الخط الصحيح والخط الخاطيء في السياسة والفكر والمنهج كما في الممارسة والعلاقة بالثورة والجمهير . ان وجود التصميم على الانتصار في هذه المعركة كان بدوره صراعا يمكن الوصول اليه وليس شيئا موروثا جاهزا . ان هذا التصميم كان يجد دعوماته ومقوماته في القناعة الكلية بضرورة تكريس حياتهم من أجل الثورة والشعب والوطن . بحيث لا يبقى من مطمع فردي او هدف خاص الا خدمة الثورة والشعب والوطن وانتصار قضية الثورة والشعب والوطن . وهنا كانت تطرد بعيدا تلك الافكار التي تدفع للبحث عن مكاسب خاصة او التمسك بالمزاج والعادات الفردية المغروسة . وهنا كان التصميم لان يكتسبوا كل ما من شأنه ان يزيد عطاءهم ويحسن أسلوب نضالهم ويرفع من قدراتهم في خدمة الثورة والشعب والوطن . ويخفقوا كل ما من شأنه ان يقعدهم عن ذلك . فاذا ما فهمنا هذه الحقيقة أدركنا ان طريق الشهداء الخمسة طريق يمكننا سلوكه . وان مزاياهم يمكننا ان نقتدي بها . وان حياتهم يمكننا ان نتعلم منها . اما ذلك الاتجاه الذي يمجدهم بتأليه وتجريد فاصلا بينهم وبين

البشر والمناضلين فيرمي من وراء ذلك السى تكريس تقاعسه  
عن الاقتداء بهم والتعلم منهم والسير على طريقهم • فيما  
داموا فوق البشر وليسوا من معدن الشعب فقد عفا نفسه عن  
متابعة الدرب الذي استشهدوا عليه • ولكن هذا الموقف  
يصطدم أول ما يصطدم مع رغبة هؤلاء الشهداء العظام  
الذين كانوا شديدي التواضع ولا ينظرون الى أنفسهم الا  
أبناء للشعب جاؤوا من صلبه وتطوروا في كنفه وتعلموا من  
تجارب ثورته ولا يقبلون ، ولو للحظة واحدة ، ان يعاملوا  
على غير تلك الصورة فكيف اذا حاول أحد أن يفصلهم عن  
الشعب ومناضليه ؟ انهم عاشوا مع الشعب والثوار يتعلمون  
ويعلمون • وكانوا على يقين ان ما يفعلونه باعادة صياغة  
أنفسهم هو ما يجب وما يمكن ان يفعله بقية زملائهم •  
ولهذا كانوا دائما حريصين على ان يتعلموا من مزايا الاخوة  
الآخرين وكذلك من مزايا الشهداء الذين سبقوهم • وكانوا  
حريصين ، بالقوة نفسها ، أن يأخذوا بأيدينا ، وبكل تواضع  
وحب ، لكي نناضل نحن أيضا لتعلم ونعيد صياغة أنفسنا •  
وإذا كانوا لم يتصرفوا مع زملائهم ومع الشعب كمعلمين  
وأساتذة • فان زملاءهم وأبناء شعبهم الذين عرفوهم  
وعملوا معهم لا بد من أن يتذكروا حرارتهم في تصحيح  
السياسات والافكار والممارسات الخاطئة • وكيف كانوا  
يبدلون جهدهم لمساعدتنا على معالجة مشاكلنا وصعوباتنا

وعقدنا ونقاط ضعفنا • لقد فعلوا ذلك ليس لان ما أرادوه  
لنا من جهاد لاعادة صياغة أنفسنا أمرا محالا وغير قابل  
للترجمة الواقعية • بل على العكس كانت ثقهم بالشعب  
والمناضلين كبيرة ولا بد لنا من أن نكون عند حسن ثقهم ،  
فنتعلم منهم فعلا بعد استشهادهم أكثر مما كنا نفعل أيام  
حياتهم • لان استشهادهم أضاف علوا جديدا وشع بنور  
قوي وسمح بأن نراهم بصورة أفضل ، فمن كان قد تعلم  
منهم في حياتهم ، فعليه اليوم ان يتعلم باجتهاد أكبر • ومن  
لم يفعل ذلك في حياتهم فعليه ان يستيقظ اليوم ويعود  
تلميذا لهم • لقد شقوا أمامنا الطريق فلتتعلم منهم التواضع  
ونكران الذات من أجل قضية الثورة والشعب والوطن •  
ولنتعلم منهم ذلك التصميم على اعادة صياغة النفس  
بالتمسك بالخط السياسي الصحيح وبالخط الفكري  
الصحيح وبالمنهج الصحيح • نعم لا بد من ان نتعلم كيف  
نصارع النزعات الضارة والافكار الخاطئة والعادات السيئة  
في أنفسنا ولكن ذلك لا يمكن ان يتحقق اذا لم نطور  
بأنفسنا وبأفكارنا الحقيقية وبسياساتنا وممارساتنا ذلك  
الانتماء التام للثورة وللشعب وللوطن • ونزدد انغراسا في  
جذور أرضنا وشعبنا وتاريخنا • ونجعل قلوبنا تنبض  
بنبض قلوب الكادحين الشرفاء •

إذا كان الاخلاص لمبادئ الثورة وللشعب وللوطن

قد وصل بشهادتنا الخمسة الى حد نكران الذات وعدم التفكير بأية مصلحة فردية خاصة . ومن ثم شكل دافعا قويا لرغبة التصميم الحديدي في اعادة صياغة النفس للتخلص من الاخطاء والنواقص ، ولطرد الافكار الخاطئة ، وللعمل على التمسك بالخط السياسي الصحيح والخط الفكري الصحيح وبالمنهج الصحيح وكان الهدف من كل ذلك هو خدمة الثورة والوطن على أفضل وجه . فقد كان من محصلة ذلك ان تحلى الشهداء الخمسة بعدد من السمات التي لا بد من الوقوف عندها ودراستها لكي تتعلم منها .

#### الرؤية الكلية للوضع :

كانت تجربة كل واحد من اخواننا الخمسة في الثورة قد مرت على مراحل عدة . ولم يكن من الممكن لهم ان ينتهوا الى الموضوعة القائلة : « من الضروري تكوين رؤية شمولية للوضع ككل وتنظيم النضال على هذا الاساس » . لولا ان عاشوا لفترات ، قصرت او طالت وهم غارقين في معالجة الجزئيات والحالات الثانوية ، تماما كما حدث ويحدث لكل واحد منا . حيث سهل الغرق في هذا دون ان يتم التنبه الى ضرورة تكوين رؤية صحيحة للوضع ككل . أو أحيانا تكون الرؤية موجودة ، أو من المفترض ان تكون تلك الرؤية موجودة ، ولكنها تنسى في أثناء الاصطدام

بالحالات الجزئية خاصة ، تلك التي تحمل طابعا سلبيا . الامر الذي يدفعنا الى الارتطام بهذه السلبيات والعمل على معالجتها بلا ربط صحيح بالنظرة الشمولية ككل . أي معالجتها دون ابقاء الاولوية للرؤية الشمولية للوضع ككل . وهنا يحدث التعقيد حين لا يكون من الممكن حل حالات جزئية ما دام حلها يرتبط بمعالجة الوضع ككل . وذلك مثل حالات وجود من يسرق أو ينافق ، أو ينتهز الفرص ، أو يتسلق بلا استحقاق الخ . . ولكن الشهداء الخمسة اكتشفوا لاجدوى هذا الغرق بالجزئيات ونسيان الوضع ككل ، واكدوا على ضرورة ان يفهم الوضع ككل فهما صحيحا وينظم النضال على هذا الاساس . بما في ذلك الصراع ضد ، او معالجة ، السلبيات الجزئية بعد تحجيمها بحججها الحقيقي ونزع ما علق بها من مبالغات . لقد تعلم شهداؤنا هذه المسألة عبر تجربتهم الغنية . وبهذا أصبح من الممكن لنا ان نتعلمها منهم . لقد كان الحاج حسن يسمي هذه العملية « عدم فقدان اتجاه البوصلة » . وكان جواد يسميها « الارتفاع عن الصغائر وممارسة النضال مع الثورة بمجموعها » وكان محمد علي يقول « الرؤية المتكاملة والممارسة بموجبها تحل هذه المسائل » . وكان سعد يقول « اذا لم نملك بالجوهر فسوف تحرقنا النظرات الضيقة » . وكان ابو خالد جورج يقول « علينا ان نعرف جيدا القوانين

العامّة التي تتحكم بالموضع ككل والقوانين الخاصة لكل حالة من الحالات . وعندئذ يمكن ان تناضل بصورة صحيحة » .

ان هذا الفهم العميق هو الذي يفسر لماذا امتلك كل واحد منهم القدرة على الثبات في الظروف الصعبة عندما كانت الجزئيات السلبية تطفو على السطح . وتدفع بالبعض الى فقدان الاتجاه والوقوع فريسة لليأس والاضطراب والتخبط . بل ان ذلك يفسر لماذا جاء استشهاد كل واحد منهم في ظرف محدد ، وكان لسان حاله في تلك اللحظة يقول لا لم تهزم الثورة . ما زالت الثورة مستمرة ويمكن الانتصار . ولنتذكر ان جواد استشهاد عندما كانت بيروت محاصرة . واستشهاد سعد ثم الحاج حسن عندما كان تل الزعتر محاصرا ينزف الدماء . واستشهاد أبو خالد جورج في ظروف اشتداد الضغط على تل الزعتر وبعد سقوط الكورة . واستشهاد محمد علي أبو يعقوب في ظروف كان الجنوب فيها يتعرض للانهياب وقد سقطت أمامه بلدة الخيام . ان مثال استشهاد محمد علي يعطي صورة أشد شفافية بسبب حدائتها لما ذهبنا اليه . لقد كانت الاجواء من حوله معبأة بطروحات تقول « لقد اتمت الثورة ، والجنوب ساقط لا محالة ، وما الذهاب الى الجنوب الا عملية انتحار . انه احراش جرش وعجلون » . نعم في قلب مثل هذه

الاجواء بقي محمد علي محتفظا بالرؤية الصحيحة للموضع ككل . ولهذا لم يفكر ، كما فعل البعض ، بانقراض جلده والهروب من المواجهة . لقد كان واثقا من امكانية الصمود ومن امكانية وقف التدهور في الجنوب ، ومن امكانية الانتصار ولهذا ثبت في الجنوب ودافع عن ابل السقي . فكان ذلك علامة ، بعد النجاح في صد الهجوم عن ابل السقي ، على وقف التدهور في منطقة العرقوب . وجاء استشهاده ليعلن ان الثورة لم تنته وان الجنوب لم يسقط وان الذهاب الى الجنوب ليس انتحارا . وسرعان ما تلقف اخوانه في بنت جبيل هذه العلامة ليسيروا بعد اسبوع متأثرة موازية في صد الهجوم عن تلة مسعود وفي استعادة تلة شلعبون . الامر الذي جعلهم يضعون اشارة اخرى تعلن عن وقف التدهور في القطاع الاوسط . هذا المثل الطازج يجب ان يعيد الى أذهاننا ذلك الشبه له الذي حدث في تلك الاوقات التي استشهاد فيها جواد وسعد وأبو خالد جورج والحاج حسن . ان سر هؤلاء في تلك الظروف الصعبة كان يكمن بالتحديد في « رؤيتهم الشمولية للموضع ككل وتنظيم النضال على هذا الاساس » . كما ان ذلك يفسر كيف استطاعوا تجاوز كل المنغصات التي كانت حولهم ، واستمروا في العطاء والنضال .

## الاتحاد مع الاخوة الآخرين :

عندما يتسلح المناضل بالرؤية الكلية للوضع • وعندما يضع مصلحة الثورة والشعب والوطن فوق مصالحه الخاصة • ويتخطى النظرات الضيقة من كل لون سواء المتعلقة بشخصه وما يمكن ان يحمل من تطلعات فردية او نزوات ذاتية او تلك المتعلقة في كيفية تقييم الآخرين فسوف يسعى بكل قوته للاتحاد مع الاخوة الآخرين ومع أوسع القوى في النضال من أجل الثورة وهو يفعل ذلك ليس فقط مع الاخوة الذين يتفق معهم بالرأي وينسجم وياهم وانما مع من يختلفون معه بالرأي أيضا ولا ينسجم وياهم • أي أنه سيصبح وحدويا في نظراته وتعامله • ويقاوم الشللية والنظرة الضيقة على كل المستويات • وهذا ما فعله الشهداء الخمسة وتوصلوا اليه بعد نضال طويل وشاق • وبعد مرور بطريق متعرج • ان هذه العملية كانت تتطلب صراعا فكريا وسياسيا وتنظيميا ضد اتجاهات الشللية والنظرات الضيقة التي ترى الثورة والمواقف والسياسات من زاوية حصتها الذاتية من وراء كل ذلك • وليس من خلال النظرة الشاملة التي تضع معيارا لها المصلحة العامة للثورة والشعب والوطن بغض النظر عن الناحية الذاتية والمصلحة الفردية او الشللية الضيقة • ان هذه المسألة هي التي جعلت جواد شديد التمسك بأصول العمل التنظيمي بغض النظر

عن الافراد ومدى ما يمكن ان يكونوا متفقين او مختلفين معه • ولهذا كان يشرع الابواب لعمل وحدوي حقيقي متجاوزا موقف البعض المضاد له • وان هذه المسألة هي التي جعلت الحاج حسن ومن بعده محمد علي يعينان أوسع الطاقات في القتال والنضال السياسي بغض النظر عن رأيهما بالتقييم الخاص لهذه القوة أو تلك • ولهذا لم يباليا بما وجه لهما من نقد لتعاونهما مع قوى كان البعض يسميها « يمينية » او « متخلفة » • ولم يكن صدفة ان ازدهر فصيل مقاتل من المشايخ في الشمال تحت تشجيعهما ورعايتهما على التوالي • وكذلك ان هذه المسألة هي التي جعلت سعد وابو خالد جورج يمدان جسور الاخوة والعمل المشترك مع اخوة يختلفون معهم على مسائل كثيرة بل يتجنون عليهم ويهاجمونهم • لقد كانت مسألة اتقان فن الاتحاد مع الاخوة الآخرين الذين يختلفون معهم عملية شاقة • ولكنها كانت صحيحة • ولهذا كان لا بد من ان يتحمل الشهداء الخمسة في نضالهم تلك المشقة ويعضون على جراهم • ويبرعون في تطبيق هذه الموضوع • ومن هنا يأتي أسلوبهم الشعبي المتواضع واسع الصدر ، بعيد النظر ، والديمقراطي في التعامل مع من يتفق معهم ومع من يختلف معهم ما دام الجميع يدخلون ضمن الاطار الوطني العريض • ان هذا الخط يتطلب حكمة وجلدا ونمسا طويلا



وقلنا محبا كبيرا في ظل نظرة شمولية للوضع ككل • وإذا ما رأينا كيف تحلى الشهداء الخمسة بهذه الصفة ادركنا اي قادة فقدنا وادركنا لماذا بكت عليهم العيون • ولكن هذا الادراك يجب ان يكون حافزا لنا لتعلم منهم هذه الموضوعة الصحيحة ، ليس بتردادها على اللسان فحسب وانما أيضا امتلاك البراعة في تطبيقها وتجسيدها في الممارسة نفسها •

### التروي والعمل باستقامة وصراحة :

كثيرا ما يجد المناضل نفسه في مأزق • وذلك كنتاج للتناقض بين ما يحمل من أفكار وسياسات وما يراه صحيحا من جهة وبين ما يجري على أرض الواقع وما يصطدم به من أفكار وسياسات خاطئة من جهة ثانية • أي بين ما يراه صحيحا وبين ما يجري على أرض الواقع وما يصطدم به من أفكار وسياسات وأخطاء • انه الصراع بين مطامح الثوار وأحلامهم في التطوير والتصحيح والتشوير وبين ما يجري على أرض الواقع من تعرج في تحقيق ذلك ، هذا التعرج الذي يحمل في طياته حدوث الانتكاسات وسيادة أفكار وسياسات وممارسات خاطئة أحيانا أو بروز عقبات كأداء وضعوبات شديدة • ان هذا المأزق قد يولد اتجاهات خاطئة لدى المناضلين مثل التذمر وفقدان الصبر او اللجوء الى المؤامرات والمكائد • ان ذلك نتاج الانفصال بين الأفكار والسياسات والممارسات المنشودة وبين ما يجري على أرض

الواقع • ولكن هذا الانفصال يصبح حالة مرضية حين تقتقر المطامح الثورية الى الفهم العميق للقوانين التي تتحكم بالتغيير المنشود هل يتم ذلك بسرعة أم ببطء ؟ هل يحصل ذلك بالضغط والاكراه والفرض ام بالاقناع والتجربة المقاسية والنفس الطويل ؟ هل يتطلب ذلك عجلة ام ترويا ؟ وهل يعالج ذلك بالتكتلات المتآمرة والمكائد ام بالاستقامة والصدق والصراحة التي تنطلق من ثقة الجماهير والكوادر والعناصر ؟ ان أجوبة الشهداء الخمسة جاءت بعد المرور بالتجربة الضرورية تقول التروي والنفس الطويل والاستقامة والصدق والصراحة والمزيد من الثقة بالثورة والشعب والمستقبل • وهذا بالضبط هو الذي يفسر ذلك الهدوء العجيب الذي كان يتحلى به كل واحد منهم • ذلك الصبر الجميل بلا تدمير وتبرم الذي كان يرسم في حياة كل منهم وتلك الابتسامة الودودة التي كادت لا تفارق وجوههم • وتلك الصراحة غير الاستفزازية ، وتلك الاستقامة غير المدعية ، وتلك العلية غير المواربة التي رافقتهم حتى أيامهم الاخيرة • ان هذه الصفات كانت مجبولة فيهم بصورة متوازنة متماسكة وتطبع كلامهم وممارستهم بلا ضجيج • ولهذا لم يكن مستغربا ان يتهموا من المتعجلين اللجوجين الطائشين ، بأنهم « مساومون ومهادنون ولا يصارعون » • لماذا ؟ لانهم كانوا مترويين

يفرقون بين الالهم وبين ما هو أقل أهمية • أو بين ما يمكن ان يغير الآن وما يمكن ان يغير غدا • لقد كانوا ثوريين حقيقيين يريدون ان يذهبوا بالثورة حتى النهاية ولكن ضمن الادراك الصحيح للقوانين التي تعمل على أرض الواقع • انهم كانوا يصححون أفكارهم لتنطبق على قوانين التغيير الثوري في الواقع لا ان يسعوا عبثا لاختراع الواقع للافكار بغض النظر عن تطابقها مع مستلزماته وسننه • ان هذه السمات هي التي جعلتهم يستمرون في النضال في قلب مواقع القتال والعمل الجماهيري ولا يتحولون الى متدمرين ناقمين ساخطين او الى متآمرين يدبرون الدسائس والمكائد او يتاجرون بالشعارات ويسعون للمكاسب الرخيصة •

كان يرى البعض ان ذلك نقصا في « الثورية » و « الجذرية » ولكن هل يستطيع أحد اليوم ان يقول ان مثل ذلك النقص كان موجودا • لقد كان كل واحد منهم يحمل عاصفة الشعب والثورة في أعماقه ولكنه كان يحمل أيضا تروى الشعب ونفسه الطويل •

يذكر الكثيرون كيف كان ابو خالد جورج يقول « يمكن ان ندبر المؤامرات ضد العدو ولكن لا يجوز ان نلجأ الى التآمر والدس والمكائد بين صفوف الشعب » • ونذكر جميعا كيف كان سعد يقول « ما أخذنا قرارا متعجلا

بلا تروى الا وكان احتمال الخطأ كبيرا » • وكان الحاج حسن يقول « بطول البال كل شيء يصحح » • وكان جواد يقول : « هناك من يستفزنا لتتخلى عن صدقنا في التعامل ولكن يجب الانجر وراء هذا الاستفزاز » • أما محمد علي ابو يعقوب فقد عامل باستقامة من دبروا المكائد ضده، فلم يكذب لهم وانما شجعهم على النضال وأعطاهم حقهم • الامر الذي دفع أحد هؤلاء الاخوة يوما ليسأله « أنت تعلم انني أهاجمك فلماذا لا تهاجمني وتعاملني على هذه الصورة وكأنك تكافئني » ؟ وكان جواب ابو يعقوب انني أعتبرك أخ لي في الثورة وفيك ايجابيات كثيرة يجب ان تقيدها منها الثورة • وأنا واثق انك في المستقبل ستغير أفكارك عني » •

#### الاهتمام بالدراسة :

لا يحمل أي من الشهداء الخمسة ذلك الطابع الذي يتسم به المثقفون الثوريون • كما لا يبدو ، في المظهر ، على أي منهم ذلك الاهتمام بشؤون النظرية والثقافة فقد كان الطابع الغالب عليهم انهم مناضلون عمليون يمارسون النشاط التطبيقي التنفيذي • فالحاج حسن وجواد ومحمد علي كانوا مقاتلين متفرغين في قوات العاصفة وكان سعد وأبو خالد جورج مناضلين متفرغين للعمل السياسي • وعندما انخرطا في العمل العسكري بدأ ذلك استمرارا لنشاطيتهما العملية البارزة • ولهذا حمل الكثيرون ممن لم

يعرفوهم عن قرب ، فكرة عنهم تصورهم مجرد مقاتلين  
شجعان ومناضلين عمليين يعرفون في النشاط التطبيقي .  
ولا يقفون أنفسهم في شؤون النظرية والدراسة . ولكن  
هذه الصورة رأت جانبا واحدا صحيحا فقط . ولم تر ذلك  
الجانب الآخر الذي لم يكن فيهم أقل أهمية . ولم يكن  
فيهم ضعيفا . وان لم يبرز على السطح كميزة طاغية . أي  
اهتمامهم في الدراسة النظرية وامتلاكهم لوعي فكري  
وسياسي عميق . ما كان ليتوفر لديهم عن طريق السماع  
فقط . وانما جاء نتيجة اهتمام حقيقي في الدراسة والمتابعة  
الفكرية والسياسية . ولا شك في أن كل من احتك بهم عن  
قرب ، ودخل معهم في نقاش ، وجد نفسه حيال طود فكري  
وسياسي ونظري متماسك . على الرغم من أن ذلك ما كان  
ليجد التعبير عن نفسه من خلال استخدام اللغة « الثقافية » .  
او من خلال استعراض للمعرفة والاطلاع . واذا قرن ذلك  
بانخراطهم العملي في الممارسة بأعلى أشكالها . فسوف  
يفسر لماذا طغى عليهم ، من حيث الظاهر فقط ، الجانب  
العملي ولم يخرج الى السطح ما كانوا يبذلون من جهد في  
الدراسة والمتابعة النظرية . ولا شك في ان طريقة  
استشهادهم كرست هذه النظرية الظاهرية احادية الجانب .  
فبدت صفة الشجاعة والروح القتالية واقتحام المخاطر أهم  
ما يميزهم .

كان هناك من يصعب عليه ان يرى المثقف مناظرا عمليا  
فهناك من يصعب عليه ان يتصور المناضل العملي يهتم  
بالثقافة . ويحمل حصيلة فكرية ونظرية عميقة . ومن هنا  
يمكننا ان نقول ان الشهداء الخمسة شكلوا طرازا يضرب  
هذين الاتجاهين الخاطئين . ويبرز أمامنا نمطا جديدا يجمع  
جمعا خلافا بين النظرية والممارسة . وكذلك بين الممارسة  
والنظرية . فهو ليس بالطراز الاحادي الجانب . سواء بهذا  
الاتجاه او ذلك . فمن منا راح يهتم بالدراسة النظرية مهمل  
الجانب العملي فعليه ان يتعلم من شهدائنا الخمسة كيفية  
الانخراط بالممارسة العملية . ومن راح يهتم بالنشاط  
العملي مهمل الدراسة النظرية عليه ان يتعلم من شهدائنا  
الخمس كيفية الاهتمام بالدراسة اهتماما جديدا . وعلينا ان  
نتعلم منهم ذلك الجمع الخلاق بين هذين الجانبين . ولكن  
علينا ان نلاحظ هنا انهم اهتموا في الدراسة من أجل ان  
يخدموا الثورة والشعب والوطن . فلم تكن المسألة  
بالنسبة لهم صم النظريات او لعاف في تردد الضيغ  
والموضوعات . وانما كان كل ما يمر عليهم يخضع في  
تناوله الى حكم الواقع الملموس والظروف المعطاة في بلادنا  
فلا يتلغ شيء بلا محاكمة أمام واقع مجتسنا وثورتنا ولا  
تنقل صيغة او موضوعة نقلا مقلدا شكليا . ولهذا كان  
الشهداء الخمسة ، بعد ان تعلموا من تجاربهم الغنية ،

يتعاملون مع الفكر والنظريات كما يتعاملون مع الممارسة  
وحل المسائل العملية . انه التعامل القائم على اساس النظرة  
النقدية والتي تسعى لاكتشاف القوانين الخاصة بظروفنا  
وثورتنا وبلادنا . ومن ثم الاستيعاب الخلاق والتطبيق  
المبدع . ان هذه المسألة يجب ان تتعلمها منهم أيضا .

### التواضع الثوري :

حمل كل واحد من الشهداء الخمسة تاريخا مجيدا في  
خوض المعارك القتالية والممارسات الجماهيرية . ولكن ذلك  
لم يدر برأسهم غرورا وتعاليا او ادعاء وتباها . بل على  
العكس كان ذلك يزيدهم تواضعا ، ويزيد من صمتهم في  
الحديث عن أنفسهم . ولا مبالغة حين نقول ان ما من واحد  
منهم روى لاحد حتى زوجه او أخيه او صديقه الحميم ما  
خاض من معارك بطولية وما قام به من مآثر كبيرة . ان كل  
ما يمكن ان نجمعه عنهم يجب ان نسعى اليه من أفراد  
عديدين عملوا معهم في فترات مختلفة . فعلى سبيل المثال  
لا الحصر كان علينا ان نسمع من الآخرين ، لا من محمد  
علي ، انه كان من أبطال معركة الكرامة وانه دخل الى  
الارض المحتلة وقاتل هناك . وكان علينا ان نسمع من  
الآخرين ان الحاج حسن قام بعمليات داخل الارض المحتلة  
عشرات المرات وقد قطع صحراء النقب على ظهر جمل .  
وكان علينا ان نسمع من الآخرين ان جواد قاد معركة ال ٧٤

ساعة في القطاع الاوسط عام ١٩٧٢ وأنه نزل دورية استطلاعية ليفتح الطريق أمام المقاتلين في حرب تشرين ١٩٧٣ مع أننا كنا نراه بعد ذلك كل يوم . وكان علينا ان نسمع من الآخرين أن سعد كان بطل جبل النصر في معارك أيلول في عمان . وكان علينا ان نسمع من الآخرين ان أبا خالد جورج كان قائدا فوق جبل صنين . واذا كان الامر كذلك فهذا يعني ان على من ناضل معهم وصادقهم ان يبحث عن تاريخ كل واحد منهم في الثورة من زملائهم . فلا يعتمد في هذا الشأن على ما يمكن ان يكون قد استدرجهم فيه للحديث عنه .

ان صفة التواضع الثوري الذي تحلى به كل منهم لا تبرز من خلال عدم حديثهم عن أنفسهم فحسب وإنما تبرز أيضا ، وبشكل أشد سطوعا من خلال مجمل ممارساتهم وعلاقاتهم سواء مع الاخوة الآخرين او مع أبناء الشعب . واذا كان على المثقفين ان يجاهدوا النفس فعلا ليصبحوا متواضعين حقيقيين فان الشهداء الخمسة حملوا التواضع منذ البداية ونموه بأنفسهم فأصبح شيئا مجبولا فيهم . ولم يكن عليهم سوى ان يثبتوه ويكرسوه ، خاصة ، أمام ما كان يحيطهم من اعجاب واحترام وسمعة حميدة . وذلك منعا للفساد الذي قد تجره الشهرة او قد يغري به اجتراح المآثر والانتصارات . وهذا ما كانوا متنبهين له ومارسوه

فعلا . انهم ما كانوا يقومون بتلك الحركات الاستعراضية التي يلجأ لها بعض المغرورين ليظهروا بمظهر المتواضعين البسطاء . وانما كانت حركاتهم بطبيعتها تقوم على تواضع عميق وأصيل . ولم تكن هذه المسألة بالنسبة لهم شغلا شاغلا . ولكن تحصيل حاصل في فكرهم وسياستهم وممارستهم وسلوكهم الشخصي . ولهذا استطاعوا ان يحظوا من الآخرين على الحب العميق والاحترام الشديد . وكان بمقدورهم ان يتعلموا جيدا ويطوروا أنفسهم باستمرار . ومن ثم كان بمقدورهم ان يكونوا معلمين بلا استئذنة .

ان سمة التواضع الثوري الاصيل حينما جبلت مع سماتهم الاخرى فتحت قلوبهم على حب الشعب حبا حقيقيا . وجعلت عملية دخولهم الى قلوب الجماهير تتم بلا حواجز او صعوبات . انهم ما كانوا بحاجة لمجاهدة النفس للعيش مع البسطاء الشرفاء من أبناء شعبنا والتحدث معهم والتعامل وياهم . انه الانتماء للشعب ليس باللفاظ والشعارات وانما الانبثاق من صميم الشعب والبقاء والعيش وممارسة النضال في وسط الشعب . ووضع قضية الشعب والثورة والوطن بالافعال وبالحيقة ، لا بالاقوال وعلى اللسان ، فوق كل قضية بحيث أصبحت هذه القضية مسألة حياة بكاملها ورحلة عمر بأسره ولا شيء

آخر • هكذا ببساطة ، وحزم ، وبلا تردد •

ولكن هذه العلاقة بالشعب لم تكن تصدر عن ذلك النوع من الشعور الذي يمكن ان نشمه عند بعض المثقفين وهو العطف على « الفقراء والحديث عن الفقراء والالتقاء لهم » من الخارج • ولكنها العلاقة العضوية التي تنبع من الداخل وتلتحم بالداخل وتعبر عن نفسها بالسياسة والافكار والممارسة وتستمر على هذا الطريق حتى النهاية • فصورة الشعب هنا ليست صورة المساكين الفقراء المستضعفين • وانما صورة القوة الجبارة التي تختزن المعرفة والحكمة والافكار السديدة والتي تمتلك مفاتيح التغيير الثوري • فيبدها ازال الهزيمة بجيوش الاستعماريين وييدها اسقاط العروش وتحطيم بنيان الطغيان وييدها بناء المستقبل المشرق •

ان هذا التواضع الثوري وهذه العلاقة بالشعب يجب ان يشكلها بالنسبة لنا نموذجاً تتعلمه من الشهداء الخمسة •

### بناء النموذج الايجابي :

كان الشهداء الخمسة يعلمون ان في الثورة نواقص وسلبيات وكانوا يرونها بشفاافية ودقة • ولكنهم ما كانوا يتذمرون من تلك النواقص والسلبيات او يتبرمون عندها تتضخم الصعوبات والعقبات وما كانوا يتشبثون بها

للهرب من الاستمرار بالبقاء في حده الاقصى • فلم يكن النقد شغلهم الشاغل • رغم ان لديهم عيوناً نفاذة في رؤية ما هو صحيح وما هو خطأ • وفي معرفة ما هو ظاهر وكثير مما هو مستتر • ولا شك في أنهم مروا بتجربة التذمر او الصراع الحاد مع تلك النواقص والسلبيات • ولكنهم أدركوا من خلال تلك التجربة ان مثل هذا المنهج لا يصلح شيئاً • ولا يبنى شيئاً • انه كلن الظلام لا يبديد الظلام وانما الذي يبديد الظلام هو ان نشعل ضياء ولو كان متواضعا • ولهذا ركزوا على صنع النموذج الايجابي الذي يشكل النقيض الحقيقي للنواقص والسلبيات • ويشكل أساساً لتذليل العقبات والصعاب • بيد ان ذلك لم يعن التخلي عن النقد او التسليم للنواقص او السلبيات وانما كان يعني وضع النقد في المرتبة الثانية لا الاولى • ويعني دخول الصراع ضد السلبيات والنواقص ضمن حجمها ، ووضعها في المرتبة الثانية بعد تركيز الصراع ضد العدو • وكذلك بعد التركيز على بناء النموذج الايجابي • وبهذا لا يكون ما مارسوا من نقد عملاً منفرداً من عقاله • وشيئاً قائماً بذاته وكأنه هدف بحد ذاته وانما كان مربوطاً بالنظرة الكلية التي يطغى عليها التفاؤل ورؤية الايجابيات • وكان مربوطاً بالعمل النقيض البناء الذي يعطي البديل • وبينني الاساس لخوض الصراع على كل المستويات •

ان هذه المسألة هي التي تجعلنا نفسر لماذا كان جواد يشجع كل المبادرات الايجابية ويرعاها ويبدل جهده وأقصى طاقته لبناء صرح قوي في أية نقطة متاحة • اوليس هذا هو الذي جعله يسهر على تشكيل السرية « الطلائية » وتعزيزها أوليس هذا هو الذي دفع بسعد لان يضع كل فكره وعرقه وجهده وأخيرا دمه من أجل ان تصبح تلك السرية قوة عسكرية بقوة كتيبة جديدة بأن تنتسب لقوات العاصفة • أوليس هذا هو الذي جعل الحاج حسن يبني قطاع الجليل ليصبح قدوة في الشجاعة والبذل والعطاء • أوليس هذا هو الذي جعل محمد علي أبو يعقوب يذهب الى قطاع الجليل بعد استشهاد الحاج حسن ليبقي هذه الشعلة مضاءة لتزيد تألقا • أوليس هذا هو الذي جعل أبو خالد جورج يتابع طريق سعد في صنين • ولكن هذه الامثلة معبرة الى حد ما الا انها لا تستنفذ كل ما يمكن ان يقال في هذا المجال • لقد كان الشهداء الخمسة حين يلتقي بهم أحد زملائهم لا يجعلون الحديث قتيلا وقالوا • ولا يفرقون في الاغتياب او في التندر على هذا وذاك • فما كانوا بحاجة لان يتحدثوا عن نواقص غيرهم كأسلوب غير مباشر للاثبات انهم أفضل • وانما كان لديهم الكثير مما يقولونه خارج هذه الاجواء • فقد كان لديهم تقديم الصورة الصحيحة للوضع ككل وكان لديهم تقديم تحليل وتصور وخطة لما

يجب ان يعمل على مستوى عام وعلى مستوى جزئي • ولهذا لم يكن عجبيا ان يحس المرء حين يلتقي بهم انه سيخرج بمشروع عملي للممارسة • ويشعر ان عليه ان يطور نفسه ويصبح أكثر عطاء • لقد كانوا جاذبية كبيرة للعديد من كمي يتفرغوا في الثورة • انه منهج بناء النموذج الايجابي • انه منهج البناء وليس الهدم فقط • بل ان الهدم لوحده لا يعني شيئا فالهدم يجب ان يصحبه البناء فاذا لم نبن لا نستطيع ان نهدم بصورة جيدة ، واذا هدمنا فسوف نخرب •

هذا درس آخر لا بد من ان تتعلمه من هؤلاء الشهداء العظام •

### فتحايون فلسطينيون

كان الشهداء الخمسة فتحايون حقيقيون فسي تمسكهم بمبادئ الحركة ومنطلقاتها • وكانوا فلسطينيين صميمين في تمسكهم بتحرير كامل التراب الفلسطيني • ولكنهم لانهم كذلك ، تخطوا ما هو سطحي وشكلي واسمي ووصلوا الى الجوهر • كانوا أبناء حقيقيين للثورة الفلسطينية ككل وكانوا أبناء حقيقيين للامة العربية والثورة العربية ككل • فقد كانت الفتحاوية الاصيله عندهم ليست تعصبا شكليا • أو بدالة يفاد منها لاغراض أخرى ، وانما

كانت تعني الجماهير والثورة الفلسطينية • وكانت فلسطينيتهم الصميمة ليست اقليمية أو تعصبا قطريا او انزاليا ينتسب لها هروبا من الامة العربية او من الاقليمية في مناطق أخرى • وانما كانت تعني في هذه المرحلة القومية العربية في أسنى مستوياتها • وما داموا كذلك فقد كانوا أيضا أبناء حقيقين للثورة العالمية • فقد كانت بنادقهم وهي تنجيه الى صدر العدو الصهيوني ، او عندما كانت تدافع عن الثورة الفلسطينية وتسهم في الثورة العربية تسير باتجاه تحطيم عالم يقوم على الاستعمار والهيمنة الامبريالية والعنصرية والصهيونية والاستغلال • وذلك من أجل بناء عالم جديد تتساوى فيه الامم صغيرها وكبيرها • وتتمتع كل واحدة منها باستقلالها الكامل وتبني ثورتها كما يتناسب مع تاريخها وظروفها واماني شعبيها • وتقوم العلاقات فيما بين كل الامم على أساس من الاحترام المتبادل والتعاون الاخوي والمصلحة المشتركة النزيهة دون استغلال أو هيمنة أو استعباد • وان الشهداء الخمسة لم يكونوا في هذا الموقع موضوعيا فحسب وانما أيضا كانوا متساحين بالوعي العميق في معرفة اين يقفون وماذا يفعلون •

والآن عندما نستعيد مرة أخرى كل تلك السمات التي

تحلى بها الشهداء الخمسة يزيد شعورنا بفداحة الخسارة التي منيت بها جماهيرنا الفلسطينية وأمتنا العربية •

وإذا بدا هذا القول أنه يحمل مبالغة فلا لوم ولا تثریب فقد خطف الاستشهاد الشهداء بوقت مبكر جدا وقبل أن يعطوا كل ما عندهم من قدرات وامكانيات تتعدى على التأكيد تلك المستويات التي عملوا بها • ولكن ستظل خسارة حقيقية موضوعيا وذاتيا • ولا شيء يخفف منها سوى ان يتعلم العشرات والمئات والالوف من خصال هؤلاء الشهداء العظام ومزاياهم وسماتهم فيتابعون الطريق حتى النصر النهائي •